

أضرحة مدينة ميلة القديمة دراسة في الخصائص المعمارية والأبعاد الاجتماعية.

Mausoleums of the Ancient City of Mila A Study of Architectural Features and Social Dimensions

شيماء معزوز.

- مخبر تراث تاريخ ومجتمع؛ جامعة عبد الحميد مهري؛ قسنطينة 2
(الجزائر).

- البريد الإلكتروني: cheymaa.mazouz@univ-constantine2.dz

تاريخ الإرسال: 2025/03/23؛ تاريخ القبول: 2025/05/30؛ تاريخ النشر: 2025/06/15.

الملخص:

تسلط هذه الدراسة الضوء على الأضرحة الأثرية بمدينة ميلة القديمة، حيث تركز على الخصائص المعمارية والفنية المميزة لها، وبالموازاة مع ذلك فهي تسعى لاستنباط ما تجسد فيها من الأبعاد الاجتماعية والقيم الثقافية والدينية. عبر استقراء كل ما وجد من مكوناتها المادية وتقصي كل ما ورثته من آثار ذات أبعاد روحية، وذلك باعتماد منهج بحثي يجمع بين التحليل المعماري والدراسة الأنثروبولوجية، إذ يهدف هذا العمل في مجمله إلى فهم أعمق لمدى التأثير والتأثر المعماري الواقع بين الأضرحة ومحيطها المبني، وتصور أوضح لدرجة التأثير والتأثر الديني المتبادل بين هذه الأضرحة ومحيطها الاجتماعي.

الكلمات المفتاحية: الأضرحة الأثرية؛ العمارة الدينية؛ الزوايا الأثرية؛
الأنثروبولوجيا المعمارية؛ ميلة القديمة.

Abstract:

This study sheds light on the archaeological mausoleums of the ancient city of Mila, focusing on their distinctive architectural and artistic features. At the same time, it seeks to extract the social, cultural, and religious values embodied within them. This is achieved through an examination of their material components and an investigation of the spiritual dimensions inherited from their historical legacy. The research follows a methodological approach that combines architectural analysis with anthropological study. The overall aim of this work is to gain a deeper understanding of the architectural influence and interaction between the mausoleums and their built environment, as well as to provide a clearer perception of the reciprocal religious impact between these mausoleums and their social surroundings.

Keywords: Archaeological mausoleums; religious architecture ; historical zawiyas ; architectural anthropology ; ancient Mila.

مقدمة:

تعد عمارة الأضرحة أحد أبرز أشكال العمارة الدينية التي لها قدسيته ومكانتها في أوساط المجتمع، وقد شاع الاهتمام ببناء الأضرحة على قبور الأولياء الصالحين والعلماء الزهاد والمتصوفين بغية الاقتداء بهم، وذلك حسب خلفيات ومعتقدات فكرية متوارثة، ولقد شهدت بلاد المغرب الأوسط انتشارا واسعا لهذا النمط المعماري، حيث أصبحت الأضرحة مكونا رئيسيا في النسيج العمراني والديني، وهو ما يتجلى بوضوح في مدينة ميلة التي تحتضن عددا من الأضرحة التي تعكس التنوع الحضاري التي مرت بها المنطقة عبر العصور.

لم تقتصر هذه الأضرحة على كونها مواقع دفن، بل تجاوزت ذلك لتكون مراكز دينية واجتماعية تمارس فيها الطقوس والشعائر، فضلا عن ارتباط بعضها بمؤسسات تعليمية ودينية ساهمت في نشر العلوم والمعرفة، وتتنقسم أضرحة ميلة إلى نوعين رئيسيين: أضرحة مستقلة مثل: ضريح سيدي سعدون، وأضرحة ملحقة بالزوايا والمساجد مثل: ضريح سيدي عزوز، بالزاوية الرحمانية، وزاوية ثلاث سيودا، حيث لعبت هذه المنشآت أدوارا مهمة في الحياة الروحية والثقافية لسكان المدينة، ما يعكس أهمية هذه العمارة في البنية الاجتماعية والدينية للمنطقة.

في ضوء هذه المعطيات تهدف هذه الدراسة إلى تحليل الخصائص المعمارية لأضرحة ميلة والكشف عن الأبعاد الاجتماعية والثقافية المرتبطة بها، ومن هنا يطرح التساؤل الرئيسي: ما هي الخصائص المعمارية التي تميز أضرحة ميلة القديمة؟ وكيف تعكس هذه الأضرحة الأبعاد الاجتماعية والقيم الثقافية للمجتمع الميلي؟

1- تعريف الأضرحة:

الضريح لغة: هو البعيد، القبر، أو الشق وسطه، أو بلا لحد، وهو مشتق من الفعل ضرح ضرحا (الفيروز، 2008، ص: 970). أما في مختار الصحاح فهو مشتق من الفعل ضرح حيث قال: "التَّحْيَةُ وَالْدَّفْعُ وَبَابُهُ قَطَعَ فَهُوَ شَيْءٌ (مُضْطَرَحٌّ) أَي مَرْمِيٌّ فِي نَاحِيَةٍ. وَقَدْ (ضَرَحَ) الْقَبْرَ مِنْ بَابِ قَطَعَ أَيضًا إِذَا حَفَرَهُ" (الرازي، 1986، ص: 159).

أما من الناحية الاصطلاحية: فيطلق على البناء المشيد فوق القبر، ويتميز عادة ببساطة الشكل والتصميم، دون أن يرقى إلى مستوى العمارة الدينية كالمساجد، أو العمارة المدنية كالقصور

والمنازل (دويده، 2015، ص: 12)، أما من الناحية الأثرية فيقصد به الحجرة التي تشمل قبر أو تربة تعلوها قبة (رزق، 2000، ص: 175). وقد تعددت تسميات الأضرحة، حيث يطلق عليها المشهد والمزار والمقام (رزق، 2000، ص: 178).

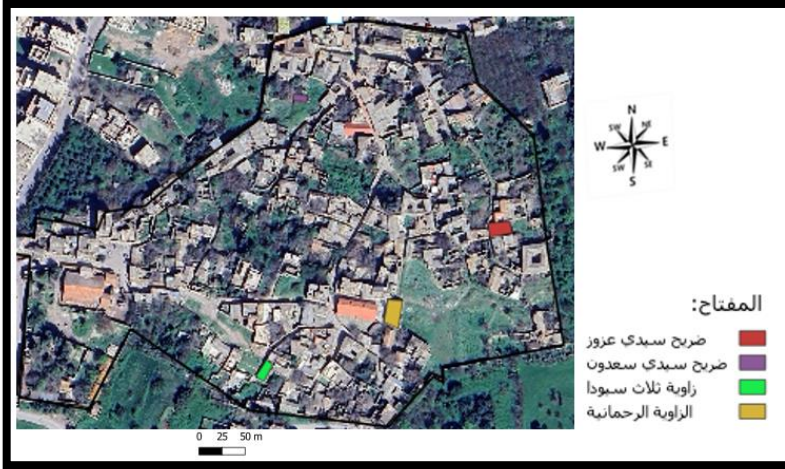
تتنوع الأضرحة من حيث الشكل والتصميم، فمنها الضريح البسيط، وهو بناء منفرد ذو مواد متواضعة، يتكون من غرفة واحدة مربعة الشكل ومقببه تضم تربة واحدة، ومنها ما يقام بالقرب من مدرسة أو يكون ملاصقا لها أو ملحقا بجامع. كما قد يكون الضريح النواة التي يبنى حولها مسجد فخم ذو مظهر مميز، متعدد المآذن، ومحاط بالبرك والحدائق والأشجار (بله، 2016، ص: 249).

2 - أضرحة مدينة ميله القديمة:

تعد دراسة الأضرحة في مدينة ميله القديمة محاولة لاستكشاف قيمتها التاريخية والأثرية والاجتماعية، نظرا لكونها معالم حضارية تعكس جوانب من الهوية الثقافية والدينية للمنطقة فهي أماكن ذات رمزية عميقة، إذ يرتبط بها المجتمع المحلي ارتباطا وثيقا، ويكثر من زيارتها سواء لأغراض دينية أو اجتماعية، ما يجعلها جزءا من الموروث الثقافي المحلي.

تضم مدينة ميله نوعين رئيسيين من الأضرحة، يتمثل النوع الأول في الأضرحة المستقلة (المنفردة) وهي بناء بسيط منفرد تتألف من غرفة واحدة مقببة مخصص لاحتواء قبر أو قبرين ولا توجد بها أي لواحق (سمية، 2020، ص: 85) مثل: ضريح سيدي سعدون. أما النوع الثاني فيتضمن الأضرحة الملحقة بالزوايا والمساجد مثل: ضريح سيدي عزوز، وضريح زاوية ثلاث سيودا بالإضافة إلى ضريح الزاوية الرحمانية، حيث

تؤدي هذه الأضرحة دورا مزدوجا دينيا وتعليميا، من خلال ارتباطها بالمؤسسات الدينية التي لطالما كانت مراكز لنشر العلم والمعرفة إلى جانب وظيفتها الروحية (أنظر الصورة الجوية رقم 1).



الصورة الجوية رقم 1: مواقع الأضرحة في ميلة القديمة.

المصدر: Google maps بتصريف الباحثة.

1.2. الأضرحة المستقلة:

ضريح سيدي سعدون:

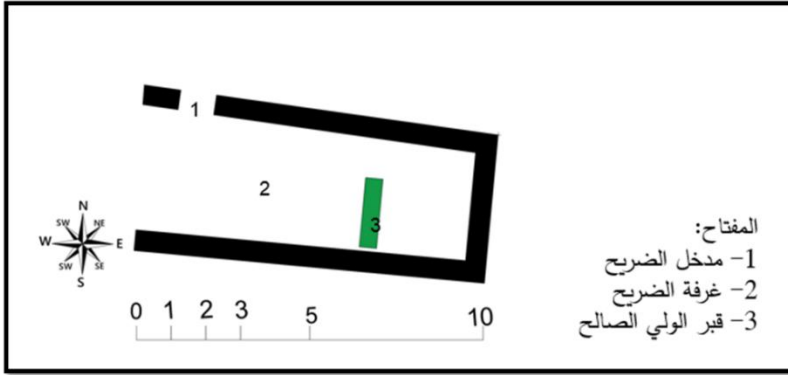
يقع ضريح سيدي سعدون في الجهة الشمالية من مدينة ميلة القديمة، يحده شرقا الزاوية الحنصالية والمسجد العتيق، وغربا زنقة الحمام أما شمالا فندق الحمام ودار زيانى وفي الجنوب يحده فندق فرجون وزنقة زوادرة. لا يزال تاريخ تأسيسه مجهول، إلا أن هناك نقشا على شاهد القدمين داخل الضريح يحمل تاريخ 1308هـ، مما قد يشير إلى سنة وفاة الشخص المدفون فيه (أنظر الصورة رقم 1).



الصورة رقم 1: ضريح سيدي سعدون.

المصدر: الباحثة.

يتخذ الضريح مخططا مستطيلا (أنظر المخطط رقم 1) ويتوسط جداره الشمالي نافذتان مستطيلتا الشكل، ويقع في وسط الغرفة تابوت مستطيل بطول 2.01 م وعرض 0.6 م، مطلي باللون الأخضر الداكن يعلوه شاهدان، حيث أن شاهد الرأس خال من الكتابة، بينما شاهد القدمين مصنوع من الخشب الدائري الشكل، ومزين بنقوش نفذت بخط الثلث بطريقة الحفر البارز على أرضية غائرة.



المخطط رقم 1: ضريح سيدي سعدون.

المصدر: الباحثة.

كتبت عباراته داخل إطارات تألف نصها من ستة أسطر وهي
كما يلي (أنظر الصورة رقم 2):

السطر الأول: بسم الله الرحمن الرحيم.

السطر الثاني: بشراك يا جنة الفردوس بشراك...دعى لشوق
سكناك...

السطر الثالث: راح سعدون بحو العين منتقلا من الديار...للذي...

السطر الرابع: فالحور طرب من ريحنتها تقول هذا سعدون لبانا
ولباكي

السطر الخامس: هذا ضريحك يا سعدون نقصد به توصل داعي
والله الشافي

السطر السادس: في ربيع الثاني سنة 1308هـ.



الصورة رقم 2: شاهد قبر ضريح سيدي سعدون.

المصدر: الباحثة

كما تعرض الضريح على مر السنوات لعوامل تلف متعددة أثرت بشكل كبير على حالته المعمارية، حيث لم يتبق منه سوى ثلاثة جدران بعد أن انهار سقفه بالكامل، مما جعله عرضة لعوامل تلف مختلفة، كما أدى هذا الإهمال إلى تحويله لمكب نفايات الأمر الذي ساهم في تسارع وتيرة اندثاره.

2.2. الأضرحة الملحقة بزوايا ومساجد:

ضريح سيدي عزوز:

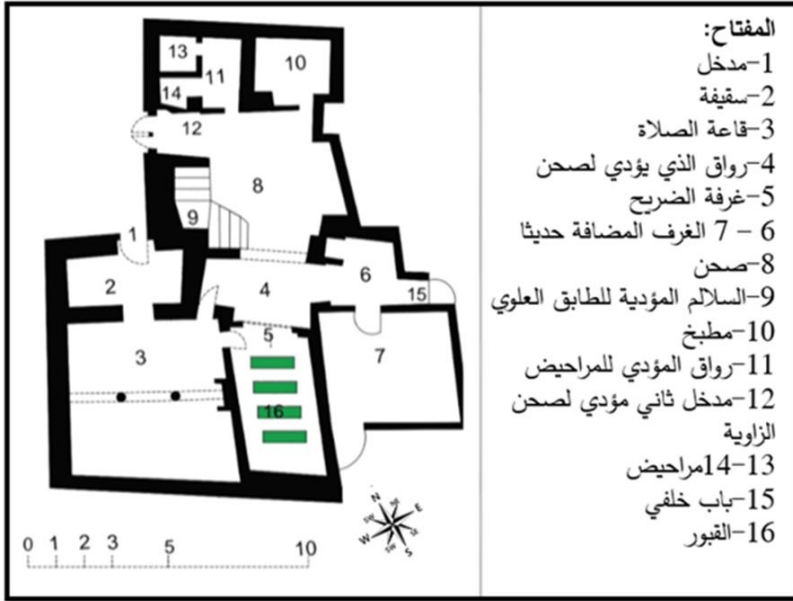
يقع الضريح في الجهة الشرقية لمدينة ميله القديمة، ولا يزال تاريخ تأسيسه مجهول، ومع ذلك فقد لوحظت كتابة تأسيسية مستحدثة أضيفت أثناء عملية الترميم، تحمل تاريخ 1591م (1015هـ)، مما قد يشير إلى تاريخ تأسيسه (أنظر الصورة رقم 3).



الصورة رقم 3: الواجهة الرئيسية لضريح سيدي عزوز.

المصدر: الباحثة.

يتم الدخول إلى الضريح عبر مدخل يحتوي على عتبة، وباب بارتفاع يقارب 1.83 م وعرض 0.98 م، يقود مباشرة إلى قاعة على شكل سقيفة مائلة إلى الاستطالة، تضم دكتين حجريتين على الجانبين ترتفعان عن مستوى الأرضية، تحتوي الغرفة على كوة مربعة الشكل في الجدار الجنوبي الشرقي. ويتكون الضريح من قسمين: يضم القسم الأول قاعة الصلاة وغرفة الضريح، بينما يشمل القسم الثاني المنزل المكون من طابقين (أنظر المخطط رقم 2).



مخطط رقم 2: ضريح سيدي عزوز.

المصدر: الباحثة.

القسم الأول: ويضم القسم الأول من ضريح سيدي عزوز قاعة الصلاة وغرفة الضريح، حيث تتميز قاعة الصلاة بتصميمها الرباعي يتم الولوج إليها عبر مدخل يعطيه عقد نصف دائري يعمل كفتحة تهوية وإضاءة، تتوسط القاعة بأكمة مكونة من ثلاثة عقود اثنان منكسران والثالث نصف دائري محمولة على أعمدة دائرية متصلة بعوارض خشبية، وقد تعرض أحد العقود لأضرار نتيجة زلزال 2019، تضم القاعة عدة نوافذ موزعة على الجدران، بينما يقع المحراب في الجدار الجنوبي الشرقي ويتميز ببروزه واحتوائه على زخرفة جصية مستحدثة.

أما غرفة الضريح فتقع في الجهة الجنوبية الشرقية لقاعة الصلاة، وتضم مدخلين أحدهما صغير الحجم يفتح على قاعة الصلاة ويحتوي على باب خشبي مستحدث، والآخر يطل على صحن المنزل، يعلو هذا المدخل لوحة رخامية منقوشة بخط النسخ باللون الذهبي توثق نسب المدفون سيدي عزوز. تتخذ غرفة الضريح شكلا مستطيلا، وقد أضيفت إلى جدرانها بلاطات خزفية حديثة أثناء الترميم، ويحتوي الجدار الجنوبي الشرقي على ثلاثة عقود مصممة محمولة على دعائم تتوسطها زخرفة جصية حديثة، وتضم غرفة الضريح أربعة قبور اثنان منها داخل توابيت خشبية بسيطة (أنظر الصورة رقم 4).



الصورة رقم 4: الأربع توابيت الموجودة في غرفة الضريح.

المصدر: الباحثة.

القسم الثاني: ويضم القسم الثاني المنزل المجاور للضريح وفقا

للواريات المتداولة انه وقف تابع لمصلى الضريح، يتكون المنزل من

طابقين حيث يضم الطابق الأرضي فناء مكشوف تحيط به مرافق تشمل المطبخ، الحمام، والمرحاض، يتوسط الفناء شجرة تين، إلى جانب دكة حجرية مخصصة للجلوس.

ضريح الزاوية الرحمانية:

تقع الزاوية الرحمانية بالجزء الجنوبي الشرقي من المدينة القديمة، وسط ساحة كبيرة تسمى المركز، شيدت في الفترة العثمانية وحسب سكان المنطقة فإن الزاوية أسست من طرف الحاج لخضر بن قائد مصطفى المتوفي في ربيع الثاني سنة 1208هـ/1794م، أما شاهد القبر الموجود في غرفة الضريح فيرجع إلى الولي الصالح خوجة بن إبراهيم المتوفي في 20 ذي القعدة 1305 هـ/1887م، وقد تداول على الزاوية كل من: سيدي العمري بن حمادة، وسيدي الحاج بن حمادة، ومصطفى بن حمادة. وسميت بالزاوية الرحمانية نسبة للطريقة الصوفية الرحمانية التي تتبعها ومن مهامها تدريس القرآن والعلوم الشرعية، وكانت الزاوية مقصدا للعلماء وحفاظ القرآن خاصة في المواسم، وعند بروز جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تحولت الزاوية إلى مسجد لأداء الصلوات الخمس وتدريس القرآن الكريم (الزاوية، 2025) (أنظر الصورة رقم 5).

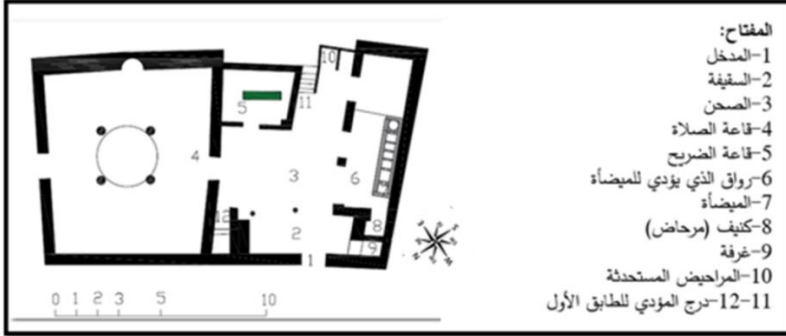


الصورة رقم 5: الزاوية الرحمانية.

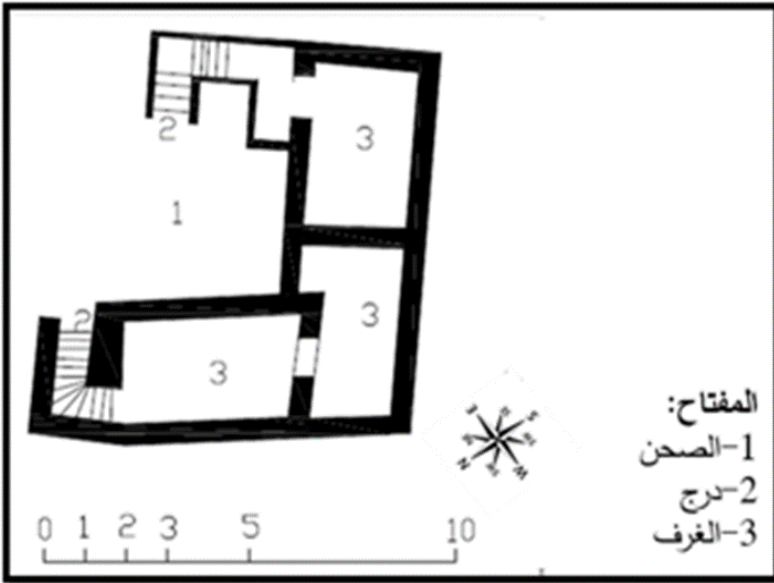
المصدر: الباحثة.

يتم الدخول إلى الزاوية عبر باب خشبي بمصراعين يحمل طبطابة معدنية، لازالت تعتمد في قفلها على الطراز التقليدي، نفضي من خلال هذا الباب إلى رواق مسقوف بعوارض خشبية والقصب، ودعمت في وقت لاحق بسبائك حديدية.

سقيفة المدخل محمولة على أعمدة أسطوانية يعلوها تاج يشبه التاج الأيوبي، فوقه وسادة تحمل تلك العوارض، أضيفت في العمود الأوسط دعامة مستطيلة الشكل من مادة الإسمنت، وعلى يسار المدخل في الجدار وجدت كوة حائطية على شكل خزانة بمصراعين. وتتكون الزاوية الرحمانية من طابقين هما: الطابق الأرضي والطابق العلوي (أنظر المخطط رقم 3 - 4).



المخطط رقم 3: الطابق الأرضي للزاوية الرحمانية.
المصدر: الباحثة.



المخطط رقم 4: الطابق العلوي للزاوية الرحمانية.
المصدر: الباحثة.

الطابق الأرضي:

يتكون الطابق الأرضي من صحن مستطيل الشكل، يحتوي على ميضاة في الجهة الشرقية منه، وهي عبارة عن رواق مسقوف

بعوارض خشبية ممتدة طولا وعرضا تحملها دعامات مربعة وأخرى مستطيلة الشكل ويبدو أنها مستحدثة أو مرممة.

أما بالنسبة لقاعة الصلاة فهي تقع في الجهة الشرقية من الصحن، يتم الدخول إليها عبر باب خشبي، وهو مدخل معقود بعقد نصف دائري مفصص في الجوانب، ننزل إلى بيت الصلاة عبر سلم متكون من درجتين، مخطط القاعة يتخذ الشكل المستطيل تقريبا تتوسطه قبة محمولة على أربع أعمدة أسطوانية تحمل الأقواس التي ترتكز عليها القبة، ويتخلل المحراب الجدار الجنوبي الشرقي مجوف عمقه 80سم تعلوه قبة نصف دائرية مبلط ببلاطات خزفية، وعلى جانبيه توجد نافذتان.

غرفة الضريح وهي عبارة عن قاعة مستطيلة الشكل، تقع في الجهة الشمالية الشرقية للزاوية، يتم الولوج إليها عبر باب خشبي ذو مصراعين يعلوه عقد نصف دائري مفصص، تحتوي على طباطبة أسطوانية الشكل مصنوعة من حديد، وقد فتحت على جانبيه نافذتين مستطيلتي الشكل، كما وجدت في الجدار الشرقي نافذة، الغرض منها التهوية والإضاءة، وسقفت الغرفة بطبقة من الجص تتوسطها قبة صغيرة الشكل مضلعة ذات قاعدة ثمانية، زخارفها هندسية قوامها مثلثات ودوائر وأشكال نجمية، وأرضية الغرفة مبلطة من الجزء السفلي ببلاطات خزفية ذات زخارف نباتية قوامها أزهار وأوراق ذات اللون الأزرق وأخرى باللون الأخضر، ولم نستطع التفريق بين الأصلية والمضافة. يتوسط الغرفة قبر خشبي وهو قبر الولي الصالح "خواجه بن براهيم"، مزين بالزخارف النباتية ذات اللون الذهبي على أرضية

خضراء، يحمل هذا الأخير شاهدين خشيين دائريي الشكل يحيط
بهما شريط زخرفي نباتي.

تم نحت الكتابة على الشاهدين بطريقة الحفر البارز،
باستخدام لون ذهبي لامع على خلفية حمراء. وقد تميزت النصوص
باستقامة السطور وضبط الخط وطريقة الكتابة، حيث تتألف من
سنة أسطر يمكن قراءتها كما يلي:

شاهد القديمين (أنظر الصورة رقم 6):

السطر الأول: محمد

السطر الثاني: سيد الكونين

السطر الثالث: والثقلين

السطر الرابع: والفريقين من عرب

السطر الخامس: ومن عجم

السطر السادس: مرو



الصورة رقم 6: شاهد القديمين.

المصدر: الباحثة

شاهد الرأس(أنظر الصورة رقم7):

السطر الأول: الحمد لله

السطر الثاني: سار إلى رحمة الله

السطر الثالث: الولي الصالح السيد

السطر الرابع: خواجه بن براهيم

السطر الخامس: في 15 ذي القعدة

السطر السادس: سنة 1305هـ.



الصورة رقم7: شاهد الرأس.

المصدر: الباحثة.

الطابق العلوي:

يحتوي الطابق العلوي على مقصورة تقع في الجهة الشمالية من الصحن، ويتم الوصول إليها عبر مدخل ذو باب خشبي، يتم الصعود إليها عبر سلم مكون من 10 درجات، تتخذ القاعة شكلاً مستطيلاً غير منتظم، تتخللها نافذتان متقابلتان تم ترميم سقفها مؤخراً، تحتوي المقصورة على باب آخر يؤدي إلى غرفة مغلقة حالياً، تستخدم المقصورة حالياً كمكتب.

ويتم الصعود إلى غرف التي تقع في الجهة الجنوبية من الصحن عبر سلم، تؤدي مباشرة إلى رواق مربع الشكل يطل على صحن الزاوية

من خلال درابزين خشبي، يؤدي الرواق مباشرة إلى غرفة تدريس القرآن، التي تتميز بمدخل معقود بعقد نصف دائري مفصص، الغرفة مستطيلة الشكل وتحتوي على كوة حائطية صغيرة، تعلو الغرفة قبة مزخرفة بزخارف نباتية، وتحتوي على نافذة تطل مباشرة على الصحن.

ضريح زاوية ثلاث سيودا:

تقع الزاوية في الجهة الجنوبية للمدينة القديمة بجوار باب الحديد، ويظل تاريخ تأسيسها مجهول، إلا أن شاهد القدمين لأحد الأضرحة الثلاثة يحمل تاريخ 1355هـ/1936م (أنظر الصورة رقم 8).



الصورة رقم 8: زاوية ثلاث سيودا.

المصدر: الباحثة.

يتم الولوج إلى الزاوية عبر مدخل به باب مصنوع من مادة الحديد، وجدت به زخرفة رمزية عبارة عن قبة يعلوها هلال، يؤدي إلى رواق ومنه مباشرة لقاعة الصلاة عبر باب خشبي بمصراع واحد. تتخذ قاعة الصلاة شكلا مستطيلا، ويتوسط الجدار الجنوبي الشرقي محراب بارز معقود بعقد نصف دائري خال من الزخارف، يحيط به نافذتان بإطارات خشبية، فقدت الغرفة تسقيفها الأصلي الذي كان

من القصب والخشب، وتم استبداله بسبائك من القصدير المدعمة بعوارض خشبية مستطيلة الشكل، يبدو أن القاعة تعرضت للتلف وأعيد ترميمها، إذ وجدت آثار الأجر الحديث في جدار المحراب، كما أعيد تلييس الجدار المقابل بمادة الإسمنت.

تقع غرفة الضريح في الجهة الغربية للزاوية، ويتم النزول إليها عبر درج وهي غرفة مربعة الشكل تعلوها قبة كروية ذات قاعدة ثمانية مدعمة بحنايا ركنية مثلثة، تحتوي الغرفة على ثلاثة توابيت خشبية خالية من الزخرفة تعلوها شواهد للقبور، وتضم نافذتين لإدخال الضوء.

وجدت في التابوت الأول كتابة شهادية في شاهد القدمين فقط، وقد نفذت بخط الثلث بطريقة الحفر البارز على أرضية خضراء، تكون نصها من ستة أسطر وهي كما يلي (أنظر الصورة رقم 9):



- السطر الأول : بسم لله الرحمن الرحيم.
- السطر الثاني: هذا ضريح الولي الصالح
- السطر الثالث: والقطب الناصح السيد
- السطر الرابع: محمد بن أبي العدل توفى
- السطر الخامس: يوم الثلاثاء
- (...) أوائل (...) محرم
- السطر السادس: سنة 1233هـ.

الصورة رقم 9: شاهد القدمين
لتابوت الأول. المصدر: الباحثة.

أما التابوت الثاني وجدت فيه الكتابة الشهادية في شاهد الرأس
صنع من مادة الخشب وهو دائري الشكل، وقد نفذت بخط الثلث
بطريقة الحفر البارز على أرضية بنية، تكون نصها من خمسة أسطر
وهي كما يلي (أنظر الصورة رقم 10):



السطر الأول: بسم الله الرحمن الرحيم
السطر الثاني: لا إله إلا الله محمد
السطر الثالث: رسول الله صلى الله
السطر الرابع: عليه وسلم تسليما

الصورة رقم 10: شاهد الرأس لتابوت الثاني.

المصدر: الباحثة

أما شاهد القدمين يحمل نفس موصفات شاهد الرأس، نفذت
بخط الثلث بطريقة الحفر البارز على أرضية بنية، تألف نصها من
خمسة أسطر وهي كما يلي:



السطر الأول: بسم الله الرحمن الرحيم
السطر الثاني: توفي المرحوم بكرم الحي القيوم
السطر الثالث: السيد سعيد بن
السيد أحمد بن حر...
السطر الرابع: رحمه الله تعالى شهر ال....
السطر الخامس: 1355هـ.

الصورة رقم 11: شاهد القدمين لتابوت الثاني.

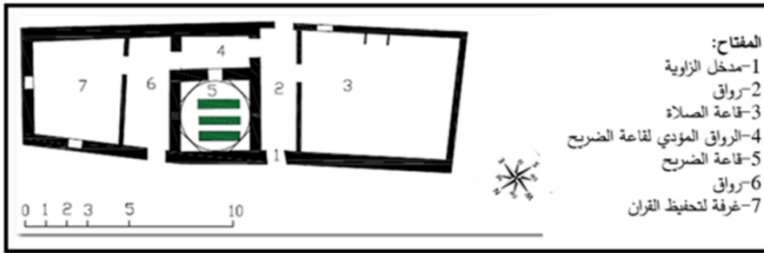
المصدر: الباحثة.

التابوت الثالث يحمل شاهدي قبر مصنوعان من الخشب، شكلهما دائري ولا يحملان كتابة ولا زخرفة (أنظر الصورة رقم 12).



الصورة رقم 12: شاهد القبر لتابوت الثالث
المصدر: الباحثة.

ثم نلج إلى رواق آخر به باب حديدي يصلنا إلى خارج الزاوية، يقابل هذا الرواق غرفة غير منتظمة الشكل يتخللها ثلاث كوات في الجدار الشرقي، وكانت تستخدم هذه الغرفة لتخفيظ القران حسب سكان المنطقة (أنظر المخطط رقم 5).



المخطط رقم 5: زاوية ثلاث سيودا.

المصدر: الباحثة.

3 -تحليل المعطيات:

يهدف هذا العنصر إلى تحليل المعطيات المتعلقة بعمارة الأضرحة في ميله القديمة، من خلال إجراء مقارنة بين الأضرحة التي تمت دراستها سابقا، واستخلاص القيم الثقافية والاجتماعية المرتبطة بها،

كما نسعى لفهم الدور الذي لعبته الأضرحة في التعبير عن المعتقدات والطقوس الجنائزية، ومدى تأثيرها على الهوية الثقافية لسكان ميلة القديمة.

مقارنة بين الأضرحة:

الأضرحة	النوع:	تاريخ تأسيسه:	التصميم المعماري:	زخرفة شواهد القبور:	الأدوات والممارسات المطبقة بها:
ضريح سيدي سعدون	ضريح مستقل	مجهول	مخطط مستطيل الشكل ويمتاز بالبساطة.	زخرفة كتابية بخط الثلث منفذ بطريقة الحفر البارز	الزيارة والتبرك.
ضريح سيدي عزوز	ضريح ملحق بمصلى	1591م	يتكون من طابقين ومخططة معقدة.	توابيت خشبية خالية من الزخرفة.	الزيارة والتبرك.
الزاوية الرحمانية	ضريح ملحق بزاوية	شيدت في الفترة العثمانية	تتكون من طابقين وتضم صحنًا وقاعات لتدريس القرآن.	زخرفة نباتية وزخرفة كتابية منفذة بالحفر البارز.	تستعمل للصلاة أيضا كمركز لتعليم القرآن الكريم.
زاوية ثلاث سيودا	ضريح ملحق بزاوية	مجهول	تصميمها كان بسيط جدا، وتضم غرفة الأضرحة قبة.	زخرفة كتابية بخط الثلث بطريقة الحفر البارز.	وكانت تستخدم في الماضي للصلاة وتعليم القرآن الكريم بالإضافة للزيارة وتبرك.

من خلال ما قدمناه في الجدول التالي يمكننا القول أن الأضرحة في ميلة القديمة تعكس تنوعا في أشكالها ووظائفها الدينية

والاجتماعية، ويمكن تصنيفها إلى أضرحة مستقلة مثل: ضريح سيدي سعدون، وأخرى ملحقة بالمصليات أو الزوايا مثل: ضريح سيدي عزوز والزاوية الرحمانية وزاوية ثلاث سيودا، كما لاحظنا أن معظم الأضرحة تفتقر إلى توثيق دقيق لفترات إنشائها غير أن بعض شواهد القبور تحمل تواريخ وفاة أصحاب الأضرحة (الأولياء الصالحين).

كما تنوع التصميم المعماري للأضرحة، فمنها ما يتميز بالبساطة كما هو الحال في ضريح سيدي سعدون وزاوية ثلاث سيودا، ومنها ما يتسم بقدر أكبر من التعقيد كضريح سيدي عزوز والزاوية الرحمانية التي تضم طابقين، وتعكس هذه الفوارق التنوع في التخطيط المعماري للأضرحة والزوايا، حيث لا يقتصر الاختلاف على الشكل العام، بل يمتد ليشمل العناصر الزخرفية، ففي حين تقتصر بعض الأضرحة على شواهد قبور تحمل كتابات بخط الثلث مثل: ضريح سيدي سعدون وزاوية ثلاث سيودا، نجد أن الزاوية الرحمانية تزدان بزخارف نباتية وكتابية أكثر تفصيلا.

أما من الناحية الوظيفية فتؤدي الأضرحة دورا اجتماعيا يتمثل في كونها أماكن للزيارة والتبرك، بينما تتجاوز الزوايا هذا الدور لتشمل أيضا إقامة الصلاة وتعليم القرآن، مما يعكس أهميتها الروحية والتعليمية في حياة سكان المدينة القديمة.

4 - القيم الثقافية والاجتماعية المرتبطة بعمارة الأضرحة في ميلة القديمة:

لطالما لعبت الطقوس الروحية دورا مهما في تشكيل الهوية الثقافية لسكان ميلة القديمة، حيث تعكس ممارساتهم ارتباطا عميقا بالمووروث الديني والاجتماعي، ومن خلال زياراتهم للأضرحة

يسعى السكان إلى تحقيق غايات مختلفة: كطلب الشفاء، والاستمطار، والتوسل، والتبرك، وتمثل هذه الطقوس جزءا من الذاكرة الجماعية للمدينة، إذ يجمع بينها البعد الروحي والإيمان ببركة الأولياء الصالحين، إلى جانب العادات التي أضفت عليها طابعا احتفاليا واجتماعيا. وسنستعرض فيما يلي أبرز هذه الطقوس ومدلولاتها في حياة سكان ميلة القديمة.

1.4. طقوس طلب تشافي وتوسل:

كان سكان ميلة القديمة يحرصون على زيارة الأضرحة طلبا للشفاء، معتقدين أنها أماكن مباركة يستجيب الله فيها لدعواتهم، وقد تجلى هذا الاعتقاد في شاهد قبر لضريح سيدي سعدون في عبارة: "هذا ضريحك يا سعدون نقصد به توسل داعي ولله الشافي"، وتعكس هذه الطقوس مدى ارتباط الناس بهذه الأضرحة كأماكن للتضرع والدعاء، وتبرز استمرارية العادات والتقاليد في الحياة الروحية للسكان ميلة.

2.4. طقوس طلب الاستمطار:

كانت طقوس الاستمطار من العادات المتوارثة في شمال إفريقيا وهي طلب المطر عند الجفاف (بينرد، 2019، ص: 296)، وكانت متجسدة أيضا في ميلة القديمة حيث يلجأ السكان إلى الأضرحة خلال فترات الجفاف أملا في سقوط المطر، يتمثل ذلك في إقامة "الوعدة" أو ما يعرف محليا بـ "الزردة"، وهي طقوس جماعية تشمل ذبح الأضاحي وتحضير الطعام داخل مقام الولي الصالح، كما كان ينصب بوغنجة وهو عبارة عمود نحاسي كان يوجد في قبة الضريح ويعلقون عليه أقمشة ملونة، وكانوا يرددون: "بوغنجة يا لابس الحرير وحمل يا الواد

الكبير"، وكانت عندهم نية أن هذه الطقوس تجلب الغيث قبل انتهائها، ما يعكس ترسخ هذه العادات في الموروث الثقافي والديني للمنطقة.

3.4. طقوس الزيارة والتبرك:

كان سكان ميلة يعتقدون أن زيارة الأضرحة لا تكتمل إلا بالنية الصادقة لتحقيق الغاية المرجوة، وخلال الزيارة يقوم الزوار بإشعال الشموع وحرق البخور ووضع الحناء على الجدران، كما لاحظنا في زاوية ثلاث سيودا وضريح سيدي عزوز، بالإضافة إلى ذلك تم رصد ظاهرة أخذ التراب من داخل التوابيت الخشبية في ضريح سيدي عزوز، حيث يمزج بالحناء لاستخدامه في طقوس مختلفة مثل: مساعدة المرأة العازبة على الزواج أو إعادة الوفاق بين الزوجين، وتعكس هذه الممارسات معتقدات محلية متوارثة ذات جذور اجتماعية وثقافية راسخة لدى سكان المنطقة.

خاتمة:

في هذه الدراسة سعينا إلى تقديم تعريف بالأضرحة في مدينة ميلة القديمة، مع تسليط الضوء على دورها الذي تجاوز مجرد كونها مواقع دفن، لتشكل مزيجا من الخصائص المعمارية والقيم الروحية والاجتماعية، وقد أسفرت دراستنا عن مجموعة من الاستنتاجات نوجزها فيما يلي:

لم تقتصر الأضرحة على كونها أماكن للدفن، بل لعبت أدوارا دينية واجتماعية مهمة عبر العصور، إذ ساهمت في ترسيخ التقاليد المحلية والممارسات العقائدية لدى سكان المنطقة.

تتنوع الأضرحة في مدينة ميلة القديمة بين المستقلة والملحقة بالزوايا والمساجد، الذي يعكس تطور المفاهيم المعمارية والدينية في المنطقة، وهذا ما عزز مكانتها كمركز ديني وثقافي بارز. اتسمت شواهد القبور في الأضرحة بالبساطة في تصميمها، حيث جمعت بين الزخرفة الكتابية التي نفذت بخط الثلث والزخرفة النباتية، مما يعكس التداخل بين الطابع الديني والجمالي في هذا النوع من العمائر.

لا تقتصر أهمية هذه الأضرحة على الجانب المعماري فقط بل تمتد إلى أبعاد ثقافية واجتماعية، حيث ارتبطت بطقوس دينية متوارثة مثل: التبرك، وطلب الشفاء، والاستمطار، وقد شكلت هذه الممارسات جزءا من الهوية الاجتماعية لسكان المنطقة، مما يعكس الترابط العميق بين العمارة والمعتقدات المحلية.

تعكس هذه النتائج أهمية الأضرحة كجزء من التراث المادي واللامادي لميلة القديمة، مما يستدعي ضرورة حمايتها وصيانتها عبر برامج متخصصة في الترميم والتثمين، لضمان استمراريته كإرث ثقافي يروي تاريخ المدينة وتحولاتها الحضارية.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 - بن بلة خيرة، (2016). ضريح سيدي محمد بوقبرين بمدينة الجزائر دراسة تاريخية أثرية، مجلة عصور، العدد: 31.
- 2 - حاج بينرد، (2019). الأضرحة ومكانتها في الفترة العثمانية بالجزائر دراسة أنثروبولوجية، مجلة المدارات التاريخية، الع: 04.
- 3 - خدران سمية، (2020). نماذج من الأضرحة العثمانية في بعض المدن الجزائرية، مجلة الحوار المتوسطي.

- 4 -الرازي زين الدين، (1986). مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد.
بيروت: المكتبة العصرية.
- 5 -عاصم محمد رزق، (2000). معجم المصطلحات العمارة والفنون الإسلامية،
ط1. مصر: مكتبة مدبولي.
- 6 -الفيروز أبادي، (2008). القاموس المحيط، تحقيق: أنس محمد الشامي
وزكرياء جابر أحمد، دار الحديث.
- 7 -مقابلة شخصية مع قيم الزاوية، يوم 2025/01/26.
- 8 -نفيسة دويده، (2015). المعتقدات والطقوس الخاصة بالأضرحة في الجزائر
خلال الفترة العثمانية. مجلة إنسانيات، العدد: 68.

✻.....✻